المقاصد الكبرى للتصوّف عند الشيخ مُحَّد المدني

د.ابراهيم بن أحمد، جامعة الزيتونة، تونس.

ملخــــص

نروم في هذا البحث الكشف عن المقاصد الكبرى للسير الصوفي عند الشيخ مُحَّد المدني. ويمكن حوصلة هذه المقاصد بشكل عام بأنها صرف الهمة للعمل على الانعتاق من عالم الحس للارتقاء بالتجربة الصوفية الى مقام المعرفة الشهودية بالله تعالى. وهذا يمثل عند الشيخ مقام الحرية الحقيقية وسر الطلاق في التجربة الصوفية .

Abstract:

In this research, we aim to unveil some of the major purposes of the Sufi path of Sheikh Mohamed El Madani. These purposes generally revolve around liberating the spirit from the sensuous world to elevate the Sufi experience to reach the knowledge of godliness. According to Sheikh El Madani, this represents the value of real liberty, and the secret of freedom in the Sufi experience.

تتأسّس مختلف العلوم والمعارف الإنسانية عادة على طائفة من المبادئ التي تحدّد مجالها وهويّتها، كما تتأسّس في الغالب على طائفة أخرى من المبادئ التي تمثّل مقاصدها الأساسية. والتصوّف كلون من ألوان المعرفة لا يستثنى من هذه القاعدة العامّة، فهو قائم على عديد المبادئ والغايات التي حدّدها ورسمها الصّوفية وأرباب البحث والنّظر والذوق في هذا الضّرب من المعرفة الخاصّة. وقد تناول **الشّيخ مُحَّد المدني**[1] بالبيان والشرح غايات التصوّف ومقاصده في غالب مؤلفاته، ويمكن الانطلاق في التعرّف إلى بداية التصوّف ونهايته من خلال إحدى حكمه المختصرة الجامعة: "الطّريقة (الطريق الصّوفي) لها بداية ونهاية، أمّا بدايتها فهي المحافظة على الفرائض، والعمل

[1]- الشيخ مُحَّد المدني:عالم زيتوني ولد في 15 فيفري 1306هـ /1880م. بمدينة قصيبة المديوني بالساحل التونسي، تتلمذ على ثلة من مشاهير الجامع المعمور مثل الشيخ بلحسن النجار والشيخ الطاهر بن عاشور.. تعرّف إلى الشيخ الصوفي أحمد بن مصطفى العلاوي وأخذ عنه أصول الطريق وصحبه إلى مستغانم بالجزائر حيث تجرد هناك لمدة ثلاثة سنوات. صنّف الشيخ في أغراض علمية عديدة من ذلك: تفاسير قرآنية، شروح لأحاديث نبوية، اصدار فتاوى، شعر، رسائل وحكم صوفية، تأليف أراجيز فقهية وعقدية وشرحها.. من مؤلفاته: الأصول الدينية في شرح الرسالة العلاوية، المعرفة الواضحة في تفسير سورة الفاتحة، كفاية المريد في التصوّف والتوحيد، برهان الذاكرين، رسالة النور.. إلخ. قضى الشيخ مُحَّد المدني تسعا وأربعين سنة في نشر العلم والتصوف إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلي يوم 14 ماي 1378هـ/1959م، ودفن بالزاوية المدنية بمسقط رأسه.

بالنوافل حسب الاستطاعة، والتحلّي بالأخلاق الجميلة الفاضلة، وأمّا نهايتها، فمعرفة الله تعالى حقّ المعرفة، والوصول إلى حضرة القدس، والتمتّع بلذّة الأنس، والغيبة عن عالم الحسّ[1] **"وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى"**[2].

إنّ نهاية التصوّف، كما نستخلصها من هذه الحكمة تتمثّل في أربع غايات هي:

* معرفة الله حقّ المعرفة.
* الوصول إلى حضرة القدس.
* التمتع بلذّة الأنس.
* الغيبة عن عالم الحسّ.

ومعرفة الله حقّ المعرفة، لا تتحقق إلاّ بالوصول إلى حضرة قدسه، والوصول إلى حضرة قدسه يثمر التمتّع بلذّة أنسه، كما أن لذّة الأنس تقتضي الغيبة عن عالم الحسّ. فالغايات الأربع التي حدّدها الشيخ لنهاية التصوّف، هي في الحقيقة غاية واحدة وإنّما التعدّد في مراقيها وأذواقها. وهذه المراقي والأذواق كما هو معلوم لدى جمهور الصوفيّة هي من ثمرات وتجليات مقام الإحسان الذي يمثّل نهاية أركان الدّين، أي أعلى مقاماته.

وقد سمّى الصّوفية هذه المقامات على سبيل الإجمال بأسماء متعدّدة من ذلك: الشّهود، الغيبة، حقّ اليقين، جمع الجمع، الفناء، المعرفة... إلخ

وقد عمد الشّيخ في كتابه "منهل التّوحيد على كفاية المريد" إلى تقسيم التّوحيد إلى قسمين، فبالنّسبة إلى القسم الأوّل يحدّد الشيخ التّوحيد في الإيمان والإسلام. وقد قدّم الإيمان على الإسلام، إذ الإيمان عنده متعلّق بالاعتقادات القلبيّة، في حين أنّ الإسلام متعلّق بالأبعاد العملية لهذه الاعتقادات، ولذلك يعرّف الإسلام بأنّه: "عبارة عن طاعة الله بجميع الجوارح في القول والفعل والجوارح"[3].

كما أنّ الشيخ يعتبر الإيمان "مقام توحيد العموم"، "الذي يجب على عموم النّاس، لأنّه يشتمل على علم الكلام بجميع أركانه من الإيمان بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقّه، والملائكة وما يجب لهم من العصمة، والرّسل، وما يجب لهم من الصّفات وما يستحيل عليهم

[1] الشيخ محمّد المدني: رسالة تحفة الذاكرين بمحاورة وحكم العارفين، حكمة 81، ص56.
[2] سورة النجم، الآية:42.
[3] الشّيخ محمّد المدني، منهل التّوحيد على كفاية المريد، ص 25.

وما يجوز لهم، والكتب واليوم الآخر، وما يحويه، وما يقع فيه من الحساب والميزان، والصّراط والجزاء، والقدر الذي لا بدّ من وقوعه على الخلائق، وهذا الرّكن المعبّر عنه بالتّوحيد الظّاهر، هو أوّل واجب على المكلّف معرفته قبل جميع العلوم"[1] وقد عبّر الشّيخ عن هذه الأحكام بقوله:

فالأوّل مقام توحيد العموم   وأوّل مفروض بين العلوم

وسمّى في الإصطلاح بالكلام   كما الفقه عرف ركن الإسلام[2]

أمّا القسم الثاني فيقول عنه في التوحيد فيسمّيه الشيخ: "التّوحيد بالشّهود والعيان، وهو المسمّى بالتصوّف"[3]. فقال عنه: "وسمّي هذا القسم بالتوحيد لما فيه من شهود أنوار الوحدانية في الذّات والصّفات والأفعال، وسمّي بالتصوّف لتصفية القلب من غير الله حتّى لا تسمع الأذن ولا تشهد العين إلاّ بنوره"[4]، فالتصوّف إذن له منتهى، وهو الشّهود الذي يجعل الصّوفي أو العارف يستغرق في معاينة الذّات. والفناء فيها والغيبة عمّا سواها. ويحدّد القاشاني مقام الشهود (أو المشاهدة) بأنّها من ولاية الذّات، ويعرّفها بقوله: "فالمشاهدة شهود الذات بارتفاع الحجاب مطلقا"[5]، أمّا من حيث التّحقيق، أي من حيث المعرفة الذوقية المتعلّقة بأسرار المقامات "فالتّحقيق معرفة ما يجب لكلّ شيء من الحقّ الذي تطلبه ذاته (أي الصوفي المتحقّق) فيوفّيه ذلك علما"[6].

ويرى محيي الدّين بن عربي، أنّ تحقيق الشّهود بالنّسبة للصّوفي هو: "مطالعة القلب للجمال القدسي، بتوالي: تجلّي نور الحق عليه من غير ستر ولا انقطاع، فيشهد الحقائق بغير حجاب... وباستمرار هذه المشاهدة بمطالعة القلب للجمال القدسي، يستولي الحقّ على العبد حتّى يستره عن كل ما سواه حتّى نفسه، وهو ما يعبّرون عنه بالفناء"[7]. فينقذف في قلب الصّوفي من فيوض المعارف اللّدنية والأسرار الحقّانية، ما لا تسعه العبارة ولا الإشارة، وينكشف له من أنوار الغيوب وسبحات الجمال والجلال، ما تنذهل له الأفئدة انذهالا، وتنخطف له الأفئدة انخطافا، وهو موقف الحيرة

[1] نفس المصدر السابق، ص 26.

[2] نفسه ص 26.

[3] نفس المصدر والصفحة. ويقسّم ابن عجيبة التوحيد بدوره إلى قسمين، فيسمي القسم الأول منه" توحيد البرهان "ويعرّفه بما يلي" :وهو إفراد الحق بالصفات والأفعال والذات من طريق البرهان "ويسمّى القسم الثاني" :توحيد العيان "ويعرّفه بقوله " وهو إفراد الحق بالوجود في الأزل والأبد "أنظر كتابه: معراج التشوّف إلى حقائق التصوّف، ص 56.

[4] الشيخ مُحَمَّد المدني، منهل التوحيد على كفاية المريد، ص 28.

[5] عبد الرّزاق القاشاني، اصطلاحات الصّوفية، ص 152.

[6] نفس المرجع، ونفس الصفحة.

[7] محيي الدّين بن عربي، الفتوحات المكّية، ج3، الباب الخامس والسّتون ومائة، في معرفة مقام التحقيق والمحققين، دار صادر بيروت ط2007، 2، ، ص 311.

والدّهش، بتوالي سطوة التجليات الإلهية على قلب الصّوفي، إذ "الشّهود إنّما يعطي البهت والخرس"[1]. ويقول الشّعراني [ت973هـ/1565م] عن حضرة الشّهود:"وما دام المريد يشهد شيئًا من الأكوان فهو لم يدخل في حضرة الحقّ، ثم إذا دخل الحضرة وحضر قلبه مع الحقّ تعالى، فليسكت حينئذ لأنه لا معنى للذّكر اللفظي مع شهود الحقّ تعالى، بل لو أراد الحاضر أن يذكر الله بلسانه لم يقدر على النطق لأنّها حضرة هيبة وجلال وبهت وخرس"[2].

ويؤكّد **الشّيخ مُحَّد المدني** هذا المعنى: "فإنّ معاني التّوحيد وصفاء التّفريد، جاءت من وراء العقول، تتحيّر في فهمها الفحول وعلماء المعقول والمنقول"[3].

ولطالما عبّر الشعراء الصّوفية عن هذه المقامات الغامضة بلغة التلويح والإشارة، مثل العفيف التلمساني [ت690هـ/1291م] على سبيل المثال في قوله:

وقفنا على المغنى قديما فما أغنى　　　ولا دلّت الألفاظ منه على معنى

وكم فيه أمسينا، وبتنا بربـعه　　　حيارى، وأصبحنا حيارى كما بتنا[4]

وما ورد في كتاب "مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب":

غابت رسوم شواهدي　　　لما رأيت خيامهم

وفنيت عن بشريتي　　　لمّا سمعت كلامهم

وعدمت رسم حقيقتي　　　لمّا شربت مدامهم[5]

والشّهود باعتباره معرفة عيانية بذات الحقّ، فهو — ولا غرو — منتهى مقصد التصوّف(أو الإحسان)، ومحطّ رحاله، "وغايته التي تمتدّ إليها الأعناق وتشرئبّ إليها النفوس"[1]، إذ هو "الوصول

---

[1] عبد الكريم الجيلي، كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات، وهو شرح لمتن" التجليات الإلهية "لمحييّ الدين بن عربي، ومعه تعليقات ابن سودكين دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008، ص 174.

[2] أنظر كتابه الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ج1، حقّقه وقدّم له : طه عبد الباقي سرور والسيد مُحَّد عبد الشافي، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 2003 ص 60.

[3] الشيخ مُحَّد المدني، منهل التوحيد على كفاية المريد، ص 38.

[4] أعلام الشعر العربي، جمع وإعداد: تميم محمود فاخوري، مريم شبلي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2003، ص267.

[5] عبد الرحمان بن مُحَّد بن علي الأنصاري الأسيدي، مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005، ص 93.

إلى الله والغيبة عمّا سواه"[2]. و في هذا السّياق يشير **الشّيخ مُحَمَّد المدني**: "المكلّف من حيث هو واجب عليه بعد أن يقدّم معرفة القسم الأوّل، الذي هو توحيد البرهان، أن يعرف الله معرفة شهود وعيان، الّتي هي معرفة الأكابر من أهل الإيقان الذين بذلوا نفوسهم لله يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه"[3].

ثم يؤكد الشّيخ على الأساس الذوقي للتصوّف: "لأجل أن يلاحظ المريد أنوار الوحدانية، ويصير من ذوي الحقائق التوحيدية والعلوم اللّدنية، فإنّ معرفة هذا العلم، تحصل بالذوق فقط، لأنّه علم قلوب لا علم كتب، أو نقول علم أرواح لا علم أشباح، يتلقّى من الأذواق، لا من الأوراق، فهو علم الوراثة القائل فيه صلّى الله عليه وسلّم: "من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم"[4]. وهو العلم المحقّق لسعادة الصّوفي، إذ التّوحيد هو منتهى الحقيقة، ومعرفة حقيقة التوحيد هي منتهى السّعادة، حيث "لا يزال المريد يترقّى من مقام إلى مقام حتى ينتهي إلى التّوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة"[5]. ويؤكد مُحَمَّد مصطفى حلمي في هذا المعنى أنّ "من العارفين من يعرف الله عن طريق الاستدلال فيستدلّ بفعله على صفته، وبصفته على اسمه، وباسمه على ذاته، ومنهم من يعرف الله عن طريق العيان، فيشهد الذّات الإلهية شهودا مباشرا... وليس من شك أنّ أرقى العارفين هو العارف الذي يشهد الذّات الإلهية شهودا عينيا، يؤدّي إلى التحقّق بالمعرفة اليقينية، وإلى تحقيق السّعادة الحقيقية"[6].

ولأجل الوصول إلى هذا المقصد، دعا الشيخ المريد الصّادق إلى وجوب:

معرفــة الله بالعـيـان	كذوق أهل الحبّ والوجدان
من بعد تقديم البرهان اللاّئق	لكي يصير من ذوي الحقائق[7]

فمعرفة الحقائق القدسيّة، ومعاينة الأسرار اللّدنية، وذوقها بالمعنى الإحساني (الصوفي) لا تتحقّق إلا بالشّهود، فالشّهود هو محور المعرفة، وفق تحديد الصّوفية العارفين، فلا معرفة إلا بمعاينة

---

[1] الشّيخ مُحَمَّد المدني، منهل التوحيد على كفاية المريد، ص 48.

[2] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[3] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[4] نفس المصدر ونفس الصفحة، وممن أخرج هذا الحديث :المحاسبي في" رسالة المسترشدين" ، والكلاباذي في" بحر الفوائد"، والطوسي في" اللمع"، والغزالي في" إحياء علوم الدين"، ومحيي الدين بن عربي في تفسيره، والجعفري في" المنتقى النفيس"، وأبو نعيم في" الحلية .. "وغيرهم.

[5] نفسه، ص 46.

[6] مُحَمَّد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوّف الإسلامي، دار القلم، القاهرة، ط1، 1960، ص23.

[7] الشيخ مُحَمَّد المدني، منهل التّوحيد على كفاية المريد، ص 48.

ذات الحقّ، ولا مرام وراءها لمعرفة أو حقيقة، إذ هي حقّ المعرفة، وكنه الحقيقة. وقد عرّف أحمد بن عجيبة المعرفة بأنّها: "التّمكن من المشاهدة واتّصالها فهي شهود دائم بقلب هائم، فلا يشهد (أي العارف) إلاّ مولاه، ولا يعرج على أحد سواه، مع إقامة العدل وحفظ مراسم الشّريعة، فهذه حدود المقامات قد انتهت في المعرفة"[1].

والمعرفة عند **الشّيخ مُحَّد المدني** ذات كنه نوراني، لأنّها متجوهرة ببحار النّور الإلهي القديم، نور الذّات المطلقة، الأزلية، المتسرمدة، التي يسمّيها الصّوفية "بحر القدم"، يقول الشّيخ أحمد بن مطفى العلاوي بلسان الإشارة مخاطبا كلّ مريد تائق لخوض هذه البحار:

عليك يـا مريـد	بخمـرة التوحـيـد
و إن تبغ المـزيــد	فالغير عنك أنـسـاه
و خض بحـر القدم	فـذاك بــحــر الله
و خض بحـر الأنوار	و المعنى و الأسـرار
و افن هذي الـديـار	يبلغ قلبك مـنــاه
إذ ليس ذا الـوجـود	إلا مـن نــور الله
الملـك و الملكـوت	كذلك الجـبــروت
فكـلّـها نعـوت	والـذّات مـسمّاه
فغب عن الصّـفـات	و افن في ذات الذّات
هـذي تلـوّنــات	مـصيـرهـــا لله[2]

ويقول الشيخ أيضا في أرجوزته "كفاية المريد":

وخض بحار النّور حيث لا ابتدا ولا هناك غاية طول المدى

ثم يقول شارحا هذا البيت:"خض أيّها المريد بحار النّور التي لا ابتداء لها ولا غاية، فإنّ نور الله لا غاية له ولا وصف، إنّما هذا البحر المحيط بجميع العوالم وكلّها بالنّسبة إليه، أي بالنّسبة لبحر القدم، أو نقول بالنّسبة لعظمة الله، أقلّ من ذرّة وأحقر، ويسمّى هذا البحر ببحر الجبروت وعالم الغيب"[3].

وليس خوض بحار النّور، في الحقيقة، سوى الخوض في أحد أضرب السير في الله، وذلك بعد استيفاء أجل السّير إلى الله، والسّير في الله ليس له حدود أو أحياز، لأنّه دائرة الإطلاق التي سمّاها الشيخ بحار النور، كما أنّ العبارة في هذا المقام لا تفي حقّ التعبير، والإعراب فيها خاسئ

[1] أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوّف، ص 32.

[2] أحمد بن مصطفى العلاوي، ديوان، ص 72.

[3] الشّيخ مُحَّد المدني، منهل التوحيد على كفاية المريد، ص 39.

حسير، وهذا الضّرب من السّير، يقتضي الارتحال عن الوجود وطيّ الأكوان لأنّ غايته الفناء في ذات الرّحمان، ولأنّه لا شهود دون فناء، إذ الفناء مقدّمة الشّهود.

وقد يسميّه بعض الصوفية "الفَقدُ"، وهذا ما عناه الإمام الجنيد[ت297هـ/909م] بقوله: "المشاهدة وجود الحق مع فقدانك.. وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته"[1].
فالفناء إذن مقتضى الشّهود، كما أنّ الشّهود مقتضى الفناء، الذي هو "زوال الرّسوم جميعا بالكلّية في عين الذّات الأحدية" [2].

وإذا كان الشّهود غاية التصوّف، والشّهود في حقيقته ضرب من المعرفة اللّدنية، فيكون المُشاهد في هذا المقام عارفا وليس عالما، وهو ما تقرّر عند جمهور الصوفية، من التفريق بين العارف والعالم، إذ التصوّف ينتهي إلى المعرفة (أو العرفان) وبهذا تكون المعرفة وهبية، لدنية، بينما العلم كسبي تحصيلي، وقد سمّى الغزالي[ت505هـ/1111م] "المعرفة""حكمة" باعتبار شرفها المطلق، لأنّ موضوعها وغرضها، هو "الله"، يقول الغزالي: "من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عزّ وجلّ، لم يستحقّ أن يسمّى حكيما، لأنّه لم يعرف أجلّ الأشياء وأفضلها، والحكمة أجلّ العلوم، وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم، ولا أجلّ من الله عزّ وجلّ، ومن عرف الله تعالى فهو حكيم وإن كان ضعيف الفطنة في سائر العلوم الرّسمية"[3]. ومن هنا، جاء تفضيل أحمد بن عجيبة العارفين بالله (الصّوفية) على العارفين بأحكام الله (العلماء، الفقهاء) حيث يقول: "بل العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع، إنّ للتصوّف منزلة تفوق منزلة علم الكلام وأصول الفقه والفقه جميعا... لأنّ العلم، يَشرُفُ بشرف المعلوم وثمراته..."[4]. وهذا عين ما أكدّه **الشّيخ مُحَّد المدني**، وهو أنّ العارف بالله هو العارف الحقيقي، وما سواه عالم بأحكام الله، فهو يقول: "والعارف بغاية التصوّف ونهايته، هو العارف بالله على التّحقيق، الشّارب من عين التوحيد المستغرق في بحار العظمة والتفريد، فهو العارف بالله، ومن سواه عالم بأحكام الله"[5].

[1]عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوّف، ص 75.

[2]عبد الرّزاق القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 159.

[3]أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، دار ابن حزم، بيروت، ط 2003 ، ص 120.

[4]أحمد بن مُحَّد بن عجيبة، الفتوحات الالهية في شرح المباحث الأصلية، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ص 179-180.

[5]الشيخ مُحَّد المدني، الأصول الدّينية في شرح الرّسالة العلاوية، ص16. و يقول الشّيخ في هذا المعنى" :القلب إذا إمتلأ بمحبة الحقّ وتجلّى عليه محبوبه صار لا يسمع الكلام إلا منه ولا يبصر إلاّ إياه، ولا يبطش ولا يمشي إلاّ به، لأنّه قد بدلت أرضه غير الأرض وبرز لله فتجلّى عليه بحلة نوره وسناه ، وهكذا شأن العارفين، لوسع بواطنهم يسمعون ما لا يسمعه غيرهم، ويختصون بالأفهام الرقيقة والمعاني الدقيقة التي لا يبلغها العالم كيفما ترقى في العلم "أنظر كتابه" :برهان الذاكرين "ص ص.16-15

إنّ التصوّف في مجمل معانيه، هو خوض في طوايا دائرة مقام الإحسان والترقي في معارجه ترقيا ذوقيا، عرفانيا بقوّة المجاهدة، من الإيقان، إلى الغيبة عن الخلق والأكوان وصولا إلى الفناء في ذات الرّحمان، وهو ما يثمر أنوار الشّهود العياني المتمثل في التحقق بأسرار قوله تعالى: "**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**"[1] وهو ما عبّر عنه الشّيخ بقوله: "من صلح ظاهره وباطنه (أي من اكتمل سيره إلى الله) فقد حقّ له أن يرث أرض البقاء (كناية عن الفناء في الذّات) أمّا الأرض الفانية (كناية عن الأكوان) فلا التِفَات إليها عند العارفين، وكيف يلتفتون إليها، والحال أنهم طووا معها العرش وما احتوى عليه، وتوجّهوا للذي فطر السّموات والأرض"[2].

وقد صاغ الشّيخ هذه المعاني الصّوفية صياغات شعرية، فهو يقول على سبيل المثال، في الفناء:

لمّا بدا الخمر القديـم وفاض الكأس بالشّراب
تلاشى الحادث العديـم فكان يشبه السّــراب
وظهـر الفيض العظيم لـمّا تمـزّق الحجاب
فهل للكون من وجــود إذا تجلّــت الأنــوار
تمحى الرُّسوم والحدود في ذات الواحد القهّـار[3]

والخمر القديم هنا، كناية عن الذّات الإلهية في كنزيتها، وفيضان الكأس بالشّراب كناية عن تدفق تجليّات أنوار الشّهود على قلب العارف، وهو "الفيض العظيم" الذي يمزّق سواتر الحجب[4]. فالتّحقق بإمّحاء الأكوان، وانطماس العوالم، وانعدام ما سوى حضرة الحقّ الواحد القهّار، هو شهود أسرار حقيقة الأحدية التي قال عنها الحقّ تعالى: "**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**"[5]. والعارف في شهوده، يشهد هذه الحقيقة الأزليّة إمّا بنعوت الجمال أو بنعوت الجلال أو بهما معا، أي بنعوت الأنس والبسط والإلطاف والرّحمة أو بنعوت القهر والعظمة والجبروت والاقتدار. وفي كلتا الحالتين من الشهود يتحقّق العارف قيّومية الله على كلّ شيء، وعبديّة كلّ شيء لله، وفنائية الأكوان، وبقاء الواحد الديّان، وهي زبدة المعرفة(التوحيد) التي يعرّفها القاشاني بأنها "الإحاطة بعين الحقيقة بالحقيقة على ما هي عليه"[6].

---

[1]سورة مُحَّد، الآية:19.

[2]الشّيخ مُحَّد المدني، رسالة تحفة الذّاكرين بمحاورة وحكم العارفين، حكمة 30، ص 40

[3]الشّيخ مُحَّد المدني، ديوان أنيس المريد في التصوّف والتوحيد، ص ص 12-13.

[4]عبد الرّزاق القاشاني، اصطلاحات الصّوفية، ص 159.

[5]سورة الرحمان، الآيات:26-27.

[6]الشّيخ مُحَّد المدني، ديوان أنيس المريد في التصوّف والتوحيد، ص37.

إذ الأكوان ما هي إلا أعراض، وحجب عن الحقّ، و"الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوّة بأحديّة ذاته[1] ، و"البقاء هو حلة من نور الحقّ الموجود على ظلمة الخلق المفقود"[2]. ويقول الشّيخ في هذا المعنى: "إنّ المريد في هذا الحال (الفناء) قد أشرق قلبه بنور المتعال وتلاشى من نظره كل خيال، حيث ظهرت أنوار الجمال والجلال أو نقول ظهرت الذّات بنعوت الكمال، فإذا ظهر الحقّ فهل يبقى للباطل منزل؟ كلا إنّما يدمغه **"فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ"**[3] وإلى هوية الفناء ينزل فلا تراه متصلا بالحقّ ولا منفصلا عنه، وكيف يكون له أدنى فسحة في الوجود، أو قل ذرّة في الشّهود؟ والحال أنّ الحقّ حائز جميع المراتب والحدود والمواطن، فهو **"الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ"**[4] وإن تعدّدت المراتب والمنازل فهو واحد كما كان، والعدد في الحقيقة زائل إنّما نعوته وصفاته تتجلّى، وبجمال ذاته تتحلّى، وكلّ نعت هو وجه من وجوهه لقوله **"فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ[5]"** [6] ولكون السّير إلى الله هو ارتحال من الأكوان إلى المكوّن، مصداق لقوله تعالى **"وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى"**[7]. يحث **الشّيخ مُحَمَّد المدني** المريد، على خرق أستار الكون لملاقاة وجه الحقّ والتنعّم بشهوده.

يقول الشّيخ في هذا المعنى:

خلّف الكون وراك — و توجّه لـمـولاك
إنّما الكون حجاب — ساتر عنك هواك
فاخرق الستر تراه — و تنل منه مـنـاك
وارتشف كأس المعاني — إنّها خمر هداك[8]

كما يقول أيضا:

إذ جمال الحقّ يهوى باطـني — لا جمـال صنعة قد تنــتفي
إذ وراء الكون ثمّ بغـيــتي — في بحـار دونها لم أقــف
فالوقوف دونها عجز ومــن — يرضى به يبقى حقيرا مختف

[1] ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية الكبرى والصغرى والمناجاة الإلهية والمكاتبات، حكمة عدد141، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006، ص 32.
[2] الشّيخ مُحَمَّد المدني، رسالة تحفة الذّاكرين بمحاورة وحكم العارفين، حكمة 34، ص 41.
[3] سورة الأنبياء، الآية:18.
[4] سورة الحديد، الآية:3.
[5] سورة البقرة، الآية:115.
[6] أنظر" :الأصول الدّينية في شرح الرّسالة العلوية"، ص 43.
[7] سورة النجم، الآية:42.
[8] الديوان، ص 11

في بحار الحق أضحت همّتي تسري إلى أعلى وأغلى الشرف
وزد صعودا للعلا ثم إلتفت وانظر إلى الأكوان فهي تختفي[1]

ويقول في معاني الشّهود:

تمزّق ثوب الوهم فأضاء ناظري وانطوى حجاب البعد فنار خاطري
وأزهر روض قلبي بنـور ربّنا فازدهى بحسنه ما بدا في ظاهـري
وعلى بساط الأنس كان اجتماعنا واستحال إشراقا ظلام الدياجـر
فبعته روحي قدما والثمن الهوى وهل كالهوى مهر من حبيب هاجر
وهل كالأرواح تهدى من عاشـق منطويا بيمين المعشوق القاهـر
ينثني غصني إذا شاهدت جماله قد تجلّى ظاهرا في مرآة الساتـر
والمرآة زيّنت بألـوان حسنـه فأضحت مزهرة بالإصباح النائـر
الإصباح لمعة والليّالي نقطة فهذي وتلك من تجليّه الظاهـر
والإصباح نوره والليّالي خلقه وتفسيري واضح لـذوي البصائر[2]

كما يشير في مقاطع شعرية أخرى إلى هذا المعني بقوله:

يا جميلا قـد تجلّـى ليـس لي قصد سـواك
إنّ قلبي قـد تخلّـى وتحـلّـى بحـلاك
وظلام الكـون ولّى وانطـوى لي في بهاك
أمرك الغيبي تجلّى إذ بـدا لي في مـرآك
نورك الغالي المحلّى مظهـر لمـن يـراك
قد دنا ثم تــدلّى حتّى غبت في معناك[3]

[1]الديوان، ص 7.
[2]الديوان، ص8.
[3]الديوان، ص 11.

والشّهود كما يقرّره الصّوفية، هو شهود العبد ذات الحقّ، شهوده بذاتها، أي شهود العبد لربّه بمشيئة ربّه، لا بمشيئة نفسه، وإلاّ لم يكن شهودا أصلا، فإنّ العين الفانية لا يسعها رؤية الحقّ الباقي سبحانه وتعالى[1].

وقد عبّر عن هذا المقام الغامض تلويحا أحد الشعراء بقوله:
أعارته طرفا رآها به * * * فكان البصير لها طرفها[2]

وقال الشّيخ مُحَمَّد البوزيدي [1327هـ/ ت1909م]

شـرابي لـي منّي وسرّي في الأواني

حاشا يكون الثاني أنا الشّارب والمشروب

أنا الكأس أنا الخمرة أنا الباب أنا الحضرة

أنا الجمع أنا الكثرة أنا المحبّ والمحبوب[3]

ومن الحكم العطائية في هذا المقام أنّ: "العارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده"[1]. وقد شرح هذه الحكمة الشّيخ زروق [ت709هـ/1309م] بقوله: "(العارف) لا إشارة له

---

[1] يقول أحمد بن مصطفى العلاوي في هذا المعنى ":إن لم تكن موجودا معه فإنك تراه، فإن قلت كيف أراه وأنا ليس بموجود معه ؟ قلت: تراه ببصره لا ببصرك وبوجوده لا بوجودك لكونك حادثا والحادث لا يرى القديم، ولمّا يصير بصرك بصره وسمعك سمعه تراه"، أنظر كتابه "المنح القدّوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصّوفية" ص 98.

[2] أورد هذا البيت أحمد بن مصطفى العلاوي دون ذكر صاحبها في" المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية "ج2، المطبعة العلوية بمستغانم، الجزائر، ط1، 1993، ص 123.

[3] مقاطع شعرية من قصيدة مطوّلة للشيخ مُحَمَّد البوزيدي، قام بشرحها تلميذه الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي في كتابه" معراج السالكين ونهاية الواصلين"، المطبعة العلاوية بمستغانم، الجزائر، د.ت. و في هذا المعنى يقول الشّاعر الصّوفي مُحَمَّد الهادي بوقرّة ":

فإذا بي السّاقي .. و عين نـديمـي — و جميع الوجود محض جناني
و أنا وحدي لي وبـي أتغنّـى — و نديمي منّي .. و منّي دناني
و أناديني هات هات إسقــــنيها — اسقني و اشرب خمرة الإحسان
خمرة من محوي و صحوي أعتصرها — نستقي فيها نشوة العرفــان
إذا تجلّى منّي وفيّ شهـــــودا — و حوى سرّي كلّ أيــنٍ و آنٍ
فيه أفنى و أبعث الخلق نـــورا — يا لسرّي ونوري الشعشعـاني

أنظر قصيدته":في حضرة القدس"، من ديوانه" :أرض المعنى"، نشر مآثر للإنتاج الثّقافي الرّقمي، توزر، تونس، ط 1 ، 2009، ص 59 .

أصلا، لا لجمال ولا لجلال ولكنّه موقوف في موقف الفناء بالحق عن كل ملاحظة وإشارة وتنبيه ومعنى... فسقوط إشارته في حاله لكمال فنائه بشهود الكمال لا لنقصه وقصوره عن مدارك الجلال والجمال، فهو فانٍ في وجوده عن وجوده، وفي شهوده بموجوده، بل بمشهوده"[2] .

كما شرح هذه الحكمة الشّيخ الحافظ مُحَمَّد حياة السّندي المدني [ت1163هـ/ 1749 م] بقوله: "لأنّ بطلوع شمس المعارف عليه (أي العارف)، اختفى نجوم وجود ما سواه لديه، فلا يعرف إلاّ مطلوبه ولا يشاهد إلا محبوبه، وهذا هو العارف عند أهل التصوّف"[3].

ولعلّ أجمع الأقوال في الشّهود، قول القاشاني:"شهود الحقّ ذاته بذاته لفناء العبد بكليته في عين الجمع"[4]. أي لاستهلاك العبد وانمحاقه في عين الحضرة الأحدية.

بيد أنّ هذا الفناء الشّهودي، ليس فسادا في الكينونة الجسدية لذات العارف كما هو الحال عند الموت، بل هو فناء يقتضيه المقام الجلالي للشّهود، فهنا يكون العارف فانيا عن أوصاف ذاته، باقيا بأوصاف الحقّ سبحانه وتعالى، وهو ما عبّر عنه أحدهم بقوله:

أفنــاه عن حظّه فيما ألمّ به * * * فظلّ يبقيه في رسـم ليبديه
ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه * * * والسرّ يطفح عن حق يراعيه[5]

وإثر فناء العبد، العارف في شهوده، يعود شيئًا فشيئًا إلى عالم الحسّ، وهو طور الصحو والبقاء، ولكن في هذا المقام، تغدو رؤيته للعالم رؤية مغايرة، لأنه عود إلى الخلق بعد فناء وشهود في حضرة الحق، بيد أنّ فناء العارف لا ينقطع حكمه وإن انقطع مقامه، إذ البقاء هنا هو "بقاء الفناء" الذي يقول عنه ابن عجيبة إنّه: "اتساع في الفناء"[6] ، لأنّ النّظر إلى الخلق بغير الحقّ ممتنع لدى العارف الذي استغرق الفناء والشّهود، إذ هو نظر إلى "السّوى"، وهو معتبر من "كبائر العارفين"،

---

[1]ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية الكبرى والصغرى والمناجاة الإلهية والمكاتبات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006، جزء من حكمة رقم 77، ص 20.

[2]الحكم العطائية بشرح أبي العباس أحمد بن مُحَمَّد الشهير بزرّوق، تحقيق ودراسة :رمضان مُحَمَّد بن علي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص 98.

[3]الشيخ الحافظ مُحَمَّد حياة السندي المدني، شرح الحكم العطائية، تحقيق نزار حمادي، مكتبة الإمام ابن عرفة، تونس، ط1، 2009، ص 54.

[4]عبد الرزاق القاشاني، اصطلاحات الصّوفية، ص 153.

[5]أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوّف، ضبطه وعلّق عليه وخرّجه آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2001، ص144.

[6]أحمد بن عجيبة، معراج التشوّف إلى حقائق التصوّف، ص60.

وعليه فصحو العارف من فنائه وشهوده، وهو صحو ظاهري تقتضيه تكاليف الشريعة، والمتمكّن في هذا المقام، هو من وفّق في الجمع بين فناء الباطن وصحو الظّاهر، وهذا ما أشار إليه أحمد بن مصطفى العلاوي بقوله عن حال العارف في هذا الطّور، إنّها تكون:"متوسّطة بين سجود وقيام لتحسين معاشرته للخلق، فلو خرج للخلق حالة كونه ساجدا أي فانيا ومتلاشيا، فلا يمكنه ملاحظة الخلق... وكذلك لا ينبغي له أن يخرج للخلق قائما، أي متباعدا عن الحق، كعادته قبل فنائه، فهذا يكون خروجه للخلق بالخلق فلا فائدة فيه وفي رجوعه..."[1]. وهذا الاعتدال بين ظاهر العارف وباطنه، يسمّيه الصّوفية "الصّراط المستقيم"، كما يسمّونه أيضا "الأدب"، وهو يقتضي الجمع بين الحقيقة والشّريعة.. أي بين الظّاهر والباطن، "فلا ينبغي أن يُغلّب جانب شيء على شيء آخر، فيكون غير عادل، والله يأمر بالعدل والإحسان... فتكون الحقيقة في باطنه مشهودة، والشّريعة على لسانه موجودة، وإن شئت قلت باطنه مشاهدة، وظاهره مجاهدة"[2]. وقد أشار **الشّيخ مُحَّد المدني** إلى هذا المقام بقوله:"كيفما كان العارف، يلزمه أن يكون في الجهتين، أي في جهتي الحق والخلق، باطنه مع الأول، وظاهره مع الثاني، فيعطي لكل ذي حق حقه، فيكون مع الأكوان بالحريّة ومع المكوّن بالعبودية، أو نقول مع الأكوان بالفقد ومع المكوّن بالوجد، فهذه رتبة التمكّن، وهي أعزّ المراتب"[3]. وعزّة هذه المرتبة، تتأتى من كونها تمثّل استيفاء لمقامات العبودية لله، التي هي مشرق حرية العبد، وهي من جواهر مكاسب السّير في الله التي عبّر عنها الشيخ أبو مدين شعيب [ت594هـ/1197م] بحكمته:" السّالك ذاهب إليه والعارف ذاهب فيه"[4]. والذهاب في الله هو الخوض في معترك مقام الإحسان الّذي هو الدائرة الخاصّة للمعرفة بالله عزّ وجلّ. فلكلّ ضرب من العبوديّة درجته من الحرّية، والحرّية لا تتحقّق إلا بعد طول المجاهدة وعناء السّير، وهذه الحرّية هي الحرّية الكسبيّة وتتحقّق بـ"تصفية الباطن من حب غير الله حتى لا يبقى فيه بقية لغير الله"[5].

وهذا منشأ الحرّية الوهبية. التي فيها "تختفي قوالب العبوديّة في تجلّي مظاهر الرّبوبية، فحينئذ يكتب للعبد عقد الحرّية فتكون عبادته وعبوديّته شكرا لا قهرا"[6]. وعلى هذا الإعتبار ذهب أبو علي الدقاق[ت406هـ/1015م] إلى أنّ "العبوديّة أتَمّ من العبادة، فأوّلا عبادة ثم عبوديّة ثم عبودة،

[1]أحمد بن مصطفى العلاوي، المنح القدّوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصّوفية، كتاب الصّلاة ، المطبعة العلاوية بمستغانم، ط4، ص 144.

[2]نفس المصدر، ص ص 144-145.

[3]الشيخ مُحَّد المدني، الأصول الدّينية في شرح الرسالة العلاوية، ص 50.

[4]أبو مدين شعيب بن الحسين، أنس الوحيد ونزهة المريد، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص73.

[5]أحمد بن عجيبة، معراج التشوّف إلى حقائق التصوّف، ص 39.

[6]نفس المصدر، ص ص 39-40.

فالعبادة للعوامّ، والعبوديّة للخواصّ والعبودة لخواصّ الخواصّ"[1] ، و"العبودة صفة أهل المشاهدات"[2]. فالعبودة إذن صفة العارفين الأحرار الذين اجتازوا المقامات، وأفنوا عن أبصارهم الكائنات، وخاضوا بحار الحضرات، واكتنفتهم التجليّات، وتحققوا بالمشاهدات، فاغتنموا من كنوز أسرار التصوّف، وغنموا منه منتهى الغنم، وبلغوا في المعرفة، منتهى المنى وأقصى الغاية، وأيّ غاية أسمى من مشاهدة الحق جلّ وعلا، فهذه، إذن، مقامات العرفان التي يتوّجها الشهود، وقد عبّر عنها الشيخ بإجمال مركّز بقوله:

وغاية التصوّف الإحسان وهو الوصول لمقامات العرفان[3]

بيد أنّ الوصول إلى الشّهود، وما يثمره من تحقّق بالمعرفة واكتساب للحرّية التي هي جوهر العبودة، يقتضي عند الشيخ اجتياز مقام أساسيّ هو: الفناء ، والفناء على ثلاثة أطوار، فالأول الفناء في الأفعال حيث لا يرى العارف فاعلا حقيقة إلا الله. والثاني الفناء في الصّفات فلا يرى العارف صفة في الوجود إلاّ وهي قائمة بذات الحقّ حقيقة واستحقاقا... فلا عظيم ولا قدير ولا جبّار ولا قيّوم ولا رؤوف ولا كريم ولا سميع ولا بصير... إلخ إلا الله، ولا يرى صفات الخلق إلا أعراضا لا قيام لها إلا بالله، والثالث الفناء في ذات الحقّ، وهو منتهى الفناء ومنتهى مرامه، حيث تنطمس ذات العارف في عين الذّات الأحدية، وتنمحق في بحر الحضرة الجبروتية، فيبقى الباقي ويفنى الفاني، ولذا يستحثّ الشّيخ، السّائر الصّوفي لبلوغ هذه المقامات بقوله:

إذا أفنيت كل الخلق والأعيان وانفـرد الوجود لله الرحمان
فهو واحد في الذات والصفات كذا في الفعل لجميع المخلوقات
فالغير في الوجود لا أثار لـه إذا نفيـت عن ربنا المماثـلة
ونسبة الخلـق لله كالسـراب وليـس بينك وبينه حجـاب
فـلا يحيّز الإله من مكـان إن الحجاب نوره على العيـان
وإن تشأ أن تبلـغ هذا المقـام فاقطع من نظرك خيالات الأنام

[1] عبد الكريم القشيري، الرّسالة القشيرية، ص 197.

[2] نفس المصدر، ص 198.

[3] الشيخ مُحَّد المدني، هدية الإخوان في الإيمان والإسلام والإحسان، ص 31.

فالكلّ دون الله إن حققـتـه يحكي هباء في هواء نعتـه

كان الإله وهـو الآن كما كان هذا فناء أهل الذوق والوجدان[1]

إن فناء أهل الذوق والوجدان، هو الفناء في الذات، وهو أعلى مقامات الفناء، وهو بحر لا ساحل له لذوق معادن المعارف اللّدنية وجواهر الأسرار التوحيديّة، التي إذا تلقاها قلب الصّوفي غرق في بحر السكر من أثر صواعق الدّهش والتحيّر في جلال الذات حيث "تبدو العظمة والإجلال على العبد فتنسيه الدّنيا والآخرة والأحوال والدّرجات، والمقامات والأذكار فتفنيه عن كل شيء، وعن عقله، وعن نفسه وفنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم"[2] ، وقد سمّى الصّوفية الذّات خمرة "لأنها إذا تجلّت على القلوب غابت عن حسّها كما تغيب بالخمرة الحسّيّة"[3]. والغالب على العارفين من الصّوفية إذا خاضوا هذا المقام أنْ يبدر عنهم من الأقوال ما يلوح في ظاهرها مخالفا لأصول العقيدة ومصادما للدّين، بل قد تبدو غالبا من ضروب الخرق أو الجنون... وما ذلك إلاّ من جلال التّجلي، وهجمة الحال، وسطوة الدّهش، وسلطان الجذب، وشدّة الأخذ في غمرات حضرة الذات.

يقول الشّيخ في هذا المعنى:

وهـذا خمرهـم فلمّا شربـوا هاموا سكارى حيرة وطربوا

صاحوا وفاهوا بالهوى قد صرّحوا غابوا عن الأكوان فيها سرحو[4]

ويقول أيضا:

كلّ من هـام فغـاب فسكر مـالــه جــنــاح

لا ملامة إن فشا ما قد ستر وبــالســرّ بـــاح

شاهد المحبوب جهرا كالقمر أو كشمس الصـبـاح

دهش الفؤاد منه وانبهـر فـبكــى وصـــاح

---

[1] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[2] عبد الله أحمد بن عجيبة، الجواهير العجيبة، جمع وتقديم وتصحيح: عبد السّلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص 260.

[3] نفس المصدر، ص 77.

[4] الشيخ مُحَّد المدني، هديّة الإخوان في الإيمان و الإسلام والإحسان، ص 31.

مزّق الأطمار والكأس انكسر   لـمــا فـاض الرّاح[1]

كما يقول في نفس المعنى:

سكرنا فغبنا   عـن كـلّ الأنام

وبالكأس شربنا   مـن خمر المدام

فيه حيّرتـنا   زدنا في اصطلام

نشــوة أهدتنا   صحنا بالغـرام

بالمحبوب بحنا   مـا بين الكرام

وبه قـد فزنا   في دار السّـلام[2]

وهذه الأقوال الغامضة، والعبارات الملغزة، هي ما سمّاه الصّوفية "الشّطح".

ويرى كثير من الصّوفية أنّ الشّطح، وإن كان من ثمرات الأطوار المتقدّمة في الطّريق الصّوفي، إلا أنّه يمثّل قصورا عن التمكّن في مقامات الولاية، إذ الشّطح متوثّق بأحوال السّكر، بينما الصّحو أرفع مقاما من السّكر، في حين يرى آخرون أنّ الشّطح يتخصّص السكر والصحو معا، إذ لكل من هذين المقامين ضرب من الشطح بمقدار سير الصّوفي في مسلكيهما، باعتباره عاكسا لدرجته في المعرفة، يقول القشيري "والعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه يشاهد العلم... فصاحب الذّوق متساكر، وصاحب الشّرب سكران، وصاحب الارتواء صاحٍ، ومن قوي حبّه تسرمد شربه، فإذا دامت تلك الصفة لم يورثه الشّراب سكرا، فكان صاحيا بالحقّ... لم يتأثّر بما يرد عليه، ولا يتغيّر عمّا هو به"[3]. والظّاهر أنّ الشيخ يأخذ من الرأيين بمقدار، إذ أنّ مقامات السّير، بما هي مراقي

---

[1] الشيخ مُحَمَّد المدني، الدّيوان، ص 12.

[2] الدّيوان، ص 24.

[3] عبد الكريم القشيري، الرّسالة القشيرية، ص 72.

متعدّدة، تتأدّى بالصّوفي إلى حضرة الحقّ، فكلّ مرقى جديد، هو أرفع بداهة من الذي يسبقه، فمقام سكر الصّحو، أرفع من مقام السّكر دون صحو[1]، ومقام الريّ أرفع من مقام الشرب[2].

ومقام السّكينة أرفع من مقام الحيرة[3]، ومقام حقّ اليقين أرفع من مقام عين اليقين[4]، ومقام التمكين أرفع من مقام التلوين[5]... ونحو ذلك، ولذلك ذهب الشّيخ إلى أنّ "العبودة" هي "الاستقرار في المقام الأكمل" باعتبار أنّها "إعطاء كل ذي حقّ حقّه: حقّ الحقّ وحقّ العباد" فهي "عين الاستواء" في الإيفاء بالحقوق. يقول الشيخ في هذه المعاني:

صحوا من سكرهم عند التنزّل   ثم استقروا في المقام الأكمل
أعطوا كل ذي حق ما يستحق   حق العباد ذلك أو حق الحق
فنظروا للخلق بعين العدم   ونظروا للحق بنعت القدم
فقاموا بالحرية مع الأكوان   وقاموا بالعبودة مع الرحمان[6]

وعلى ذلك نخلص أنّ الشيخ قد حدّد مقوّمات العبودة مع الرّحمان في الوجوه الثلاثة التالية:

- النّظر للخلق بعين العدم.
- النّظر للحقّ بنعت القدم.
- القيام بالحرّية مع الأكوان.

وهذه الوجوه، من مراقي السّير إلى حضرة الحقّ، تؤكد دون شكّ الوحدة التّامة للمقصد الصّوفي ألا وهو ذوق التوحيد المطلق ظاهرا وباطنا بتبصّر أسراره السّارية في كل ذرات الوجود، والوقوف على الاستواء الإبداعي الخلاّق بين القدرة والحكمة في عالم الخلق، حيث القدرة تظهر

---

[1]المراد بسكر الصحو: الذي يكون عن دوام الشّهود، مع تمكين في المقام، يقول القاشاني في هذا المعني" :وهذا السكر نتيجة الشهود، ومن كان سكره عن شهود فلا يصحو أبدا ."ويقول القاشاني عن الصحو ":رجوع القلب إلى الاحساس بعد الغيبة بوارد قوي ."أنظر كتابه : "رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال"، ص ص 213-215.

[2]يقول عبد الكريم القشيري في هذا المعنى" :ومن جملة ما يجري في كلامهم الذوق والشرب، ويعبّرون بذلك عمّا يجدونه من ثمرات التجلّي ونتائج الكشوف وبواده) مفاجآت) الواردات، وأوّل ذلك الذوق ثمّ الشرب ثم الارتواء"، أنظر الرسالة القشيرية، ص72.

[3]يعرّف القاشاني" السّكينة "بأنها" :سكون التمكين في شهود أحدية الجمع ."ويسمّي القاشاني الحيرة ومقاماتها (الدّهش) ويعرّف هذا المصطلح بقوله: "بهتة تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه". أنظر :"اصطلاحات الصوفية"، ص142.

[4]يقول عبد الكريم القشيري:"فاليقين هو العلم الذي لا يداخل صاحبه ريب على مطلق العرف.. و على موجب اصطلاحهم، عين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان.. وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف .أنظر كتابه "الرّسالة القشيرية"، ص 85.

[5]يقول أحمد بن عجيبة : " التلوين هو الانتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، وقد يسقط ويقوم، فإذا وصل إلى صريح العرفان وتمكّن من الشهود فصاحب تمكين". أنظر:" معراج التشوّف إلى حقائق التصوّف"، ص 70 .

[6]الشّيخ محمّد المدني، هدية الإخوان في الإيمان والإسلام والإحسان، ص31.

الأشياء وفق مقتضى مشيئة الحقّ، والحكمة تسترها بنواميس الأسباب والعلل، ممّا يجعل الحقيقة باطنه في الشّريعة والشّريعة ظاهرة في الحقيقة، وهذا ما عبّر عنه أحمد بن عجيبة بقوله: "المشيئة قدرة، والنظر إلى الأسباب حكمة، ولا بدّ من الجمع بينهما. فالحقيقة معيّنة والشّريعة مبيّنة، الشريعة حكمة والحقيقة قدرة، والحقيقة حاكمة على الشّريعة في الباطن، والشريعة حاكمة على الحقيقة في الظّاهر، وليس حكم القدرة بأولى من وصف الحكمة في محلّه ولا بالعكس"[1].

وأشار إلى هذا المعنى أيضا ابن عطاء الله السّكندري [ت709هـ/1309م] في حكمته الثاقبة: "سبحان من ستر سرّ الخصوصية بظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية"[2]. وهذا ما انتهت تجارب الصّوفية إلى التحقّق به في دائرة وحدة إدراك ميتافيزيقي خارق، هو جماع: كشف ومعاينة وذوق، ومن ثمّة أشهر الصّوفية بلسان عين الحقيقة حرّيتهم في خضمّ عبوديتهم. وعبوديتهم في خضمّ حرّيتهم.

فالعبودة - في نهاية الأمر- كمقام صوفي يؤالف بين عرفان الحقائق التوحيدية في الظاهر والباطن، لتنختم من جهة المقام، ولكنها لا تنختم من جهة الحقائق المتصلة بها، لأنّها من دائرة ذات الحق وصفاته التي لا يطالها الدّرك والتعقّل ولا يحاط بكنهها، وشهود الذّات، وإن كان غاية غايات التصوّف، فليس هو إحاطة بالذّات، بل إحدى خطى المعرفة "في الذّات" التي لا يحيط بها إلاّ من صفته "المحيط" لأنّ معرفته ليس لها مستقرّ، فتتحدّد به، إذ التحدّد قرار، ومعرفة الله بلا قرار، لأنّها عين المطلق. قال تعالى: "**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**"[3] وقال:"**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**"[4]. وعلى هذا الاعتبار أعلن النفري[ت 354هـ/965م] :"فمن كان حدّه القرار فليس مقامه المعرفة، ومن كان حدّه المعرفة، فليس مقامه القرار"[5].

وهذا سرّ الإطلاق في التّجربة الصّوفية.

<u>قـائمة المصادر والمراجع</u>

---

[1]أحمد بن مُحَمَّد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، راجعه وحقّقه: مُحَمَّد عزّت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008، ص 309.

[2]مُحَمَّد حياة السندي المدني، شرح الحكم العطائية، ص 64.

[3]سورة طه، الآية:110.

[4]سورة الحديد، الآية:3.

[5]مُحَمَّد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، كتاب" موقف المواقف "ضمن نصوص صوفية غير منشورة، حقّقها وقدّم لها: بولس نويا، دار المشرق، بيروت، ط1، 1973 ، ص 195

- (الأسيدي) عبدالرحمان بن مُحَّد بن علي الأنصاري، مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2005،1.

- (بوقرة) مُحَّد الهادي، ديوان أرض المعنى، نشر: مآثر الانتاج الثقافي الرقمي، توزر، تونس، ط1، 2009.

- (الجيلي) عبد الكريم، كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008.

- (حلمي) مُحَّد مصطفى، الحبّ الالهي في التصوّف الإسلامي، دار القلم، القاهرة ط1، 1960.

- (زروق) أحمد بن مُحَّد، شرح الحكم العطائية، تحقيق ودراسة: رمضان مُحَّد بن علي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

- (السكندري) ابن عطاء الله، الحكم العطائية الكبرى والصغرى، بيروت، ط1، 2003.

- (الشعراني) عبد الوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ج1، حقّقه وقدّم له: طه عبد الباقي سرور والسيد مُحَّد عبدالشافي، مطبعة المعارف، بيروت، ط1، 200.

- (شبلي) مريم و(فاخوري) تميم محمود، أعلام الشعر العربي، دار المعرفة، بيروت، ط2003،1.

- (شعيب) ابو مدين، أنس الوحيد ونزهة المريد، تحقيق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

- (العلاوي) أحمد بن مصطفى، المنح القدسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، كتاب الصلاة، المطبعة العلاوية بمستغانم، الجزائر، ط3، 1985.

- (ابن عربي) محيي الدين، الفتوحات المكيّة، ج3، دار صادر، بيروت، ط2، 2007.

- (ابن عجيبة) أحمد بن مُحَّد، الجواهير العجيبة، جمع وتقديم وتصحيح: عبدالسلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

-عبدالله أحمد، ايقاظ الهمم في شرح الحكم، راجعه وحقّقه: مُحَّد عزت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008.

- معراج التصوّف إلى حقائق التصوّف، تحقيق وتقديم: عبد المجيد خيّالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1، 2004.

- ايقاظ الهمم في شرح الحكم، راجعه وحقّقه: مُحَمَّد عزت، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2008.

- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- (العلاوي) أحمد بن مصطفى، كتاب أم القواعد وما انطوت عليه من العقائد، المطبعة العلاوية بمستغانم ، الجزائر، ط3، 1985.

- معراج السّالكين ونهاية الواصلين، المطبعة العلاوية بمستغانم، الجزائر، د.ت.

- المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية، المطبعة العلاوية بمستغانم، الجزائر، ط1، 1993.

- (الغزالي) أبو حامد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003.

- (القشيري) عبد الكريم، الرسالة القشيرية في علم التصوّف تحقيق واعداد: معروف زريق وعلي عبد الحميد باطرجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 2005.

- (القاشاني) عبدالرزاق، اصطلاحات الصوفيّة، ويليه: رشح الزلال في شرح الالفاظ المتداولة بين أرباب الأدواق والأحوال، ضبط وتصحيح وتعليق: عصام ابراهيم الكيّالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005.

- (الكلاباذي) أبو بكر مُحَمَّد بن اسحاق، التعرّف لمذهب أهل التصوّف، ضبطه وعلّق عليه وخرّج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001.

- (المدني) مُحَمَّد، رسالة تحفة الذاكرين بمحاورة وحكم العارفين، منشورات الزاوية المدنية بقصيبة المديوني، المنستير، تونس، ط1، مارس 2004.

- منهل التوحيد على كفاية المريد، مطبعة الشحمي، قصر سعيد، تونس، ط2، 1984.

- ديوان أنس المريد في التصوّف والتوحيد، مطبعة الهلال، قصر هلال، المنستير، تونسن ط1، 2002.

- هدية الاخويان في الايمان والإسلام والإحسان، منشورات الزاوية المدنية بقصيبة المديوني، المنستير، تونس، د.ت.

- الأصول الدينية في شرح الرسالة العلاوية، مطبعة الهدي تونس، ط1، 2010.

- برهان الذاكرين، مطبعة الهلال، قصر هلال، المنستير، تونس، ط3، 2007.

- (المدني) مُحَّد، حياة السندي، شرح الحكم العطائية، تحقيق: نزار حمادي، مكتبة الامام ابن عرفة، تونس، ط1، 2009.

- (نويا) بولس، نصوص صوفية غير منشورة، حققها وقدّم لها: بولس نويا، دار المشرق، بيروت، 1973.